فداء ... للنهاية

خباب بن الأرت

رضي الله عنه

عندما يصبح الفداء سلوكا !

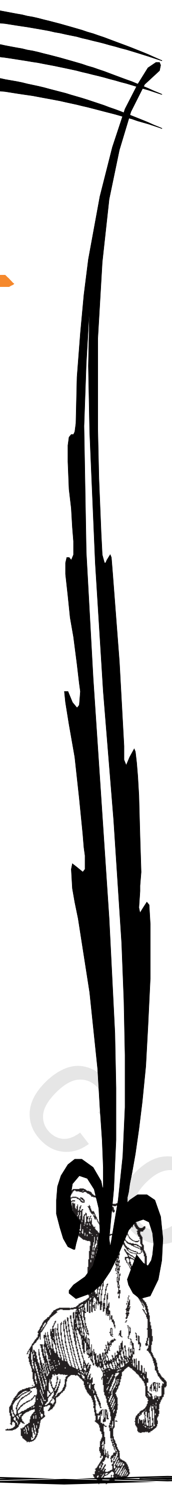

opeikandi.com

«أين خباب يا فتى؟ ».

هتف بها قرشي من مكة، كان قد جاء بصحبة عدد من زملائه إلى ورشة خباب لصناعة السيوف، ليتسلموا سيوفهم التي تم الاتفاق على تصنيعها مع خباب.

كان الرجل يتساءل مندهشا، فلم يكن خباب معتادا أن يترك ورشته التي أقامها في بيته، خصوصا وأن هناك موعدا لتسليم عدد من السيوف لعدد من رجال قريش.

إلا أن الفتى الذي كان يعمل عند خباب، لم تكن لديه الإجابة الشافية، حيث أجاب في أدب بعد أن انتفض بعد رؤيتهم:

– لا أعرف سيدي.. فلقد ترك الورشة منذ وقت غير قليل، ولم يبلغني في أي وقت سيعود.

قال أحدهم وهو يضحك في استهزاء:

– خباب أصبح لديه مواعيد لا يعرف متى يأتي منها !

ووسط الضحكات العالية لمح أحدهم «خبابا» يأتي من بعيد فهتف متسائلا:

– أليس هذا هو «خباب» الذي يأتي من بعيد ؟

قال آخر وهو يحدق النظر في تعجب:

– وكأنه هو!!

كان خباب شابا في الخامسة والعشرين من عمره، يعرفه أهل مكة شابا بسيطا فقيرا من بني تميم، سبى منذ الصغر واشترته سيدة من خزاعة ثم أعتقته، تسمى أم أنمار، عمل بعدها صانعا للسيوف في بيته..

إلا أن «خبابا» في هذه المرة لم يكن على الوجه الذي يعرفه رواده من قبل.

كان خباب يسير هادئا مبتسما متأملا.. تزداد ابتسامته كلما اقترب من الصحبة التي كانت تنتظره أمام ورشته..

وعند وصول خباب لاحقه أحدهم وهو يهتف:

– أين كنت يا خباب ؟ جئناك منذ زمن لنسألك عن سيوفنا.

رحب بهم خباب وقد بدت عليه فرحة عجيبة وهو يقول:

– أعتذر لكم جميعا.. فلقد كنت على موعد أهم عندي من صناعة السيوف.

قال أحدهم بنبرة سخرية وهو يلتفت إلى أصحابه:

– ألم أقل لكم: إن «خبابا» أصبح لديه مواعيد ؟!

قال خباب في هدوء عجيب أسكت ضحكات بدأت في التعالي:

– كنت في لقاء مع رجل أضحي بحياتي كلها من أجله !

قال أحدهم متسائلا بعد لحظات من صمت رهيب:

– من هو ذاك الرجل الذي تضحي بحياتك كلها من أجله يا خباب؟!

أجاب خباب في ابتسامة أضاءت وجهة كله:

– رجل تعرفونه جيدا.. بل تعرفه مكة كلها جيدا..

هب الرجل وكأنه غير مصدق وهو يقول:

– محمد ؟!

وقف خباب وهو ينظر إليهم قائلا في ثقة:

محمد رسول الله.

ولم يدر خباب بعدها بنفسه..

فلقد انهالت الضربات واللكمات من كل اتجاه على خباب دون رحمة، وبكل غل الدنيا أخذوا يضربونه ضربا مبرحا، لم يتركوه بعدها إلا مغشيا عليه..

لقد بدأ خباب الرحلة مبكرا..

ثلاث سنوات من البعثة.. حتى قرر خباب أن يكون بين يدي الرسول ﷺ مسلما..

بل ولم يكتف خباب بذلك.. فلقد أظهر إسلامه فور إسلامه مباشرة، على ما كان في الأمر من خطورة بالغة، فكان من أوائل المسلمين الذين أعلنوا إسلامهم في مكة.

ولقد بدأ خباب يدفع الثمن مبكرا..

ومبكرا جدا..

لقد جمع من تولوا تعذيبه الحديد من بيته، فصهروه وجعلوه سلاسل وقيودا، ثم وضعوها في النار لتصل إلى أقصى درجة يمكن الوصول إليها، ثم وضعوا هذه القيود والسلاسل على جسده ويديه وقدميه.

إنه تعذيب كفيل بأن يجعل أقوى الأقوياء ينهار، وأشد الأشداء يسقط هربا من هذا الجحيم..

إلا أن «خبابا» لم ينهر ولم يضعف، بالتأكيد كان يتألم كأشد ما يكون الألم، ولكنه لم يعط لأعدائه الفرصة كى يروا ضعفه.. وأبدا لم يعط جلاديه أملا في أن يحلموا –مجرد حلم– أنه سيتنازل عن مبدأه أو يتراجع عن قراره أو أن يخذله إيمانه.

لقد تحمل خباب من التعذيب ما لم يتحمله بشر، وظل سنوات يتحمل ويصبر ويقاوم وينتصر..

وعندما شعر خباب وعدد من الصحابة بأن الضعف بدأ يتسلل إليهم، وأن الصبر بدأ في النفاد،

obeikandl.com

وأن المقاومة قد بدأت تلين، اجتمعوا وفكروا أن يذهبوا للرسول ﷺ..

وعند الكعبة.. ذهب خباب مع عدد من الصحابة إلى الرسول ﷺ، يشكون إليه شدة عذابهم وقلة حيلتهم ويسألونه سؤالا بسيطا...

الدعاء.

مجرد دعاء.. يدعو به الرسول ﷺ ربه يخفف عنهم شيئا من العذاب.

لكن المفاجأة.. أنهم وجدوا الرسول ﷺ قد احمر وجهه وقال لهم في غضب:

«قد كان من قبلكم يؤخذ منهم الرجل، فيحفر له في الأرض، ثم يجاء بمنشار، فيجعل فوق رأسه، ما يصرفه ذلك عن دينه..وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون»!!

قالها الرسول ﷺ في إصرار شديد، جعل خبابا ومن معه يستصغرون ما يحدث لهم، ويوقنون أن الطريق صعب، وأن الدفاع عن رسالة الإسلام يتطلب المزيد من التحمل والتضحية..

فهم خباب الرسالة، وازدادت شحنة إيمانه بعد حديث الرسول ﷺ، وأصبح مقبلا على مزيد من التضحية ومستعدا لمزيد من التعذيب..

ولقد كان ينتظره بالفعل المزيد من التعذيب..

فلم يكتف أعداؤه بما فعلوه ويفعلونه فيه كل يوم، بل إنهم طلبوا من سيدته أم أنمار قبل أن تعتقه، أن تشارك في تعذيبه بعد أن حكوا لها ما حدث، وأوهموها بأن الأمر يمس الكرامة.. فكيف يسلم من كان عبدا لديها في يوم من الأيام ؟!

وشحنت أم أنمار غل حياتها كله لتصبه فوق رأس خباب، وفعلت بخباب ما لم يفعله أعتى المجرمين وأقسى الظالمين.

فلقد كانت تأخذ الحديد المحمى الملتهب وتضعه فوق رأس خباب...

يا إلهي...

أهناك من البشر من يتحمل هذا ؟

لقد تحمل خباب..تحمل وتحمل دون أن ينطق بكلمة واحدة، توحي بيأس أواستسلام أو ترضي غرور أم أنمار وغير أم أنمار..

حديد يغلي فوق رأس خباب، وهو صابر محتسب على العهد لا يخلفه..

كان الحديد يغلي فوق رأس خباب، لا يصبره على ذلك إلا كلمات تدور في رأسه قالها له الرسول ﷺ أمام الكعبة في موقف لن ينساه:

«قد كان من قبلكم يؤخذ منهم الرجل، فيحفر له في الأرض، ثم يجاء بمنشار، فيجعل فوق

obeikandi.com

رأسه، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون»!!

إلا أن الرسول ﷺ الذي غضب من خباب حين سأله بالأمس دعاء يخفف به ما يتحمل من عذاب، رق قلبه له اليوم وهو يراه يعذب بالحديد المحمى فوق رأسه وهو ينظر إليه.. وينظر خباب إليه وهو يكاد يقول له:

– أنا على العهد يا رسول الله ..أصبر كما صبر من قبلي، وأصمد كما صمدوا في سبيل الله..

انفطر قلب الرسول ﷺ على خباب، ورفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو:

«اللهم انصر خبابا».

يا لله..إنها دعوة كان ينتظرها خباب منذ زمن..

ربما شعر خباب بعدها أن الطريق قد اقترب من نهايته..وأن النصر قريب والفرج أقرب وأقرب..

أخيرا ..لقد دعا له الرسول ﷺ..

ولقد استجاب الله لرسوله ﷺ ونصر الله «خبابا»..

فلقد أصيبت أم أنمار بعدها بسعار غريب جعلها تعوي كالكلاب، وعندما طلبوا لها الأطباء، قالوا: إن علاجها الوحيد هو كي رأسها بالنار!!

انتصرت يا خباب.. انتصرت..

انتصرت يا خباب.. وتستحق النصر..

لقد صبر خباب صبرا عظيما، وما صبره على ذلك إلا الإيمان و..

دار الأرقم بن أبي الأرقم..

فلقد كانت فكرة الرسول ﷺ أن يجتمع المسلمون كل يوم تقريبا في مكان واحد، يتعلمون فيه الجديد مما نزل من القرآن، ويتعلمون فيه الجديد من الإسلام – فكرة ممتازة.. لشحذ همم المسلمين وتشجيعهم على تحمل الأذى والصبر في سبيل الله..

وكان خباب مواظبا على الحضور من أول لقاء، فلقد أسلم خباب قبل أن يبدأ المسلمون اجتماعهم في دار الأرقم ، ولقد أظهر خباب تفوقا ملحوظا في حفظ القرآن، واستثمر هذا التفوق الملحوظ في مساعدة المسلمين الذين كانوا يخشون التجمع في دار الأرقم بانتظام، فكان يذهب إليهم في بيوتهم ليعلمهم القرآن.

كان خباب يتابع ما ينزل من القرآن سورة سورة وآية آية، حتى إن عبد الله بن مسعود، وهوالذي قال عنه رسول الله ﷺ:

«من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل، فليقرأه بقراءة ابن أم عبد» كان يعتبر «خبابا» مرجعا فيما يتصل بالقرآن حفظا ودراسة..

وكان من أشهر البيوت التى عرفها التاريخ التي كان يدرس فيها خباب .. بيت سعيد بن زيد زوج فاطمة أخت عمر بن الخطاب.

ولم لا.. وهو البيت الذي شهدت جدرانه قرار إسلام عمر؟!

ففى السنة السادسة من البعثة.. كان خباب يدرس القرآن لسعيد بن زيد وفاطمة بنت الخطاب زوجته، وما إن سمع صوت عمر بن الخطاب الغاضب الثائر من بعيد، وقد جاء متقلدا سيفه بعدما سمع بإسلام فاطمة أخته، حتى أسرع في جانب من البيت متخفيا، وأخذ في لهفة يسمع الحوار الدائر..

ضرب عمر فاطمة ضربة أسالت الدم من وجهها، وهى ترفض أن تعطيه صحيفة مكتوبا فيها آيات من سورة طه حتى يتوضأ، وما إن توضأ عمر وقرأ الصحيفة، حتى ذهل خباب مما قاله عمر بعدها..

لقد قال عمر شيئا لا يصدق..

- دلوني على محمد!!

وما إن سمع خباب ما قاله عمر.. حتى هب وهو يخرج من مخبئه في فرحة غامرة وهو يقول لعمر:

يا عمر..والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ، فإني سمعته بالأمس يقول: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك.. أبي الحكم بن هشام، وعمر بن الخطاب»..

وسأله عمر من فوره: وأين أجد الرسول الآن ؟

قال خباب، وقد شعر أنه لم يفرح في حياته قط مثل هذه اللحظة:

«عند الصفا، في دار الأرقم بن أبي الأرقم»..

وأسلم عمر.. وكان نصرا عزيزا للمسلمين ودفعة معنوية هائلة لهم، جعلتهم يجاهرون بإسلامهم أمام الجميع.

ومضى خباب وعمر في طريقهما بكل إصرار وهمة وعزم..

حصار اقتصادي واجتماعي..وهجرة إلى المدينة..وقتال في سبيل الله..

بدر وأحد والأحزاب.. حضرها خباب كلها لم يتخلف عن واحدة.

ويحيا خباب حتى يرى عمر الذي اختبأ منه في بيت زوج أخته، قد أصبح خليفة يرفع راية الإسلام على ثلث الأرض حاكما قويا عادلا، ويصرف راتبا كبيرا لخباب، باعتباره من المهاجرين

obeikandi.com

السابقين إلى الإسلام.

واليوم.. أصبح خباب الفقير صانع السيوف غنيا، حتى إنه قد بنى لنفسه دارا كبيرة في الكوفة، بعد أن انتقل إليها من المدينة .

وفي تصرف كريم يدل على كرم بالغ ورغبة قوية في شكر النعمة، كان خباب يضع أمواله في صندوق في ركن من منزله يعرفه أصحابه ورواده، فيعطي منه كل من يطلب دون تردد!!

إلا أن كثرة مال خباب، جعلته يتذكر إخوانه الذين ضحوا بحياتهم في سبيل الله..

كان يتذكر «مصعبا» و«حمزة» وغيرهما الكثير، ويشعر أن الله قد أعطاهم أجرهم كاملا، ويخشى أن يكون الله قد انتقص من أجره بما أعطاه له في الدنيا من مال وفير !!

ولقد بلغ به هذا الشعور إلى درجة أنه كان يبكي عندما زاره إخوانه وهو مريض وقد ذكروه بإخوانه قائلين :

– أبشر يا أبا عبد الله، فإنك ملاق إخوانك غدا.

فأجابهم وهو يبكي:

– أما إنه ليس بي جزع.. ولكنكم ذكرتموني أقواما وإخوانا مضوا بأجورهم كلها لم ينالوا من الدنيا شيئا، وإنا بقينا بعدهم حتى نلنا من الدنيا ما لم نجد له موضعا إلا التراب.

وأشار إلى داره التي بناها.. ثم أشار مرة أخرى إلى المكان الذي فيه أمواله وقال:

– والله ما شددت عليها من خيط، ولا منعتها من سائل.

لقد كان خباب يشهد الله أنه لم يكن ليرغب في متاع الدنيا، وإنما كانت رغبته – كل رغبته – أن يأخذ أجر جهاده كاملا غير منقوص.

وسيأخذه..

فلقد أراد الله لخباب أن ينهى حياته بآلام جسدية كما بدأها، وأراد له أن يختم حياته بعد إسلامه بصبر عظيم كما بدأها بصبر عظيم، فابتلاه الله بمرض شديد طويل في عهد علي بن أبي طالب قبل أن يخرج لموقعة صفين..

كان المرض شديدا على خباب، لم يستطع معه تحمله حتى إنه كان يقول:

– لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به !!

وفي العام السابع والثلاثين من الهجرة وعن عمر يناهز ثلاثة وسبعين عاما، توفي خباب.

وعندما عاد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب من موقعة صفين، وقعت عيناه على قبر في أطراف الكوفة، فتعجب؛ فسأل علي:

– قبر من هذا ؟

فأجابوه: إنه قبر خباب.

فتأمله علي بن أبي طالب في خشوع وأسى وهو يغالب البكاء، وقال:

- رحم الله خبابا.. لقد أسلم راغبا.. وهاجر طائعا.. وعاش مجاهدا.

رحمك الله يا خباب..

ولتهدأ الآن جراحك.. وليسكن ألمك..ولتحيا مع الأحبة.. محمد ﷺ وصحبه.

* * *

obeikandl.com

دروس و تحليل

١ – قوة العقيدة والمبادئ تعطي قوة وعزة لا يعرفها إلا أصحابها (خباب يصمد أمام أسياده دون خوف).

تكمن قدرة الإسلام الرهيبة على تغيير النفوس، في أنه يعطى قيمة للإنسان أمام نفسه، وتشعره بأنه قد أصبح يحمل مجموعة من المبادئ السامية المستمدة من الله عز وجل، ومن أشرف الخلق محمد ﷺ، وهو ما يجعل الإنسان يمتلك قوة نفسية غير عادية أمام السادة والمسئولين مهما كان بسيطا، وأمام الأغنياء مهما كان فقيرا، وخباب كان إنسانا فقيرا وحرفيا بسيطا، وعبدا قبل أن يعتق، دفعته عزة الإسلام إلى الصمود في وجه أسياده حتى هزمهم، رغم كل ما لاقاه من تعذيب.

٢ – الإيمان يعطي قدرة غير عادية على تحمل الأذى المادي والمعنوي (تعذيب خباب بصورة تفوق الخيال).

لا يمكن تخيل أن المسلمين الأوائل، تحملوا ما تحملوا من تعذيب جسدي واضطهاد معنوي بقدرتهم العادية، فلقد أمدهم الإيمان بالله بطاقة نفسية هائلة ، جعلتهم يتحملون ما لا يتحمله بشر، بصورة أذهلت جلاديهم، ودائما.. وفى كل العصور.. لا يتوقع الطغاة أن يصمد أصحاب المبادئ ساعات، فإن صمدوا فلا يتوقعون صمودهم أياما، فإن صمدوا فلا يتوقعون صمودهم أسابيع، فإذا بهم يفاجؤون بصمودهم شهورا وسنين.

إنهم لا يعرفون أن الإيمان يضاعف قدرة الإنسان على الصبر؛ لأنه يعرف أن ما يحدث له لن يغفله الله أبدا، فإيذائه سيترجم يوما إلى درجات في الجنة ونعيم مقيم، فضلا عن انتصاره على جلاديه في الدنيا حتى وإن نجحوا في إنهاء حياته.. وسيظل دائما هوالمنتصر الشجاع، وهم المهزومون الجبناء.

٣ – الله لا يترك أبدا عباده المخلصين، ولكنه ينتظر حتى يرى صدقهم وبرهان إيمانهم (انتقام الله من أم أنمار التي عذبت «خبابا»).

كثيرا ما يتعرض الواحد منا لمواقف ظلم بينة واضحة، فإذا به ينتظر ردا سريعا من الله بمساعدته، فإذا تأخرت الإجابة، يظن أن الله قد تخلى عنه.

إن الله لا يتخلى عن عباده المخلصين أبدا، ولكنه ينتظر حتى يتيقن من صبر العبد على ابتلائه، والذي يسخط ويغضب لن يعد من الصابرين، والذي يغضب ويشعر أن طريق الله قد أضره فيبدأ في الرجوع عنه يكون قد كتب شهادة رسوبه في الاختبار.

إن الصبر على البلاء يعنى التحمل مع الرضا وعدم السخط، وليس الحزن؛ فطبيعة الإنسان أن يحزن ويتأثر بما يحدث له، والثقة في انتظار الفرج مع الأخذ بالأسباب، ولن يترك الله عبده أبدا في حاجة إليه دون أن يمد له يد العون، ولكن الاستعجال هوالذي يجعل العبد يظن ذلك، فلندع الله

بكل تضرع وتذلل ، ونترك له شأن الإجابة.

٤- لابد من النجاح بعد الصبر (انتصار خباب على جلاديه والانتقام من أم أنمار).

لابد أن يدرك الإنسان قوانين الحياة، ومن قوانينها التى لا تختل أبدا، أن العمل مع الصبر لابد أن يؤدي إلى النجاح، وليس شرطا أن يكون الصبر على ابتلاء، بل قد يكون صبرا على طاعة، والتى ليست بالضرورة أن تكون عبادة من صلاة وصيام؛ بل قد تكون مذاكرة مضنية أو عملا شاقا مرهقا للبدن ومستنفدا للوقت، ولكن معه الصبر، بالتأكيد ستتحسن الأمور، ويهيئ الله للإنسان فرصا أفضل، إذا ما صبر، ونظر إلى الله بعين الرجاء، مع الاجتهاد والتوكل عليه.

٥- الذي يريد أن يصلح الناس لابد أن يذهب إليهم لا أن ينتظر أن يأتوا إليه (خباب يعطي دروسا للقرآن في البيوت).

نظرا للظروف الصعبة التى بدأت فيها الدعوة، امتنع بعض المسلمين عن أن يرتادوا دار الأرقم خشية الظهور والتعرض للاضطهاد والتعذيب، ودفعت رغبة خباب الصادقة في نصرة الإسلام، إلى أن يذهب إلى هؤلاء ويساعدهم في حفظ القرآن، وربما كانت مكافأة الله له أن إسلام عمر بن الخطاب كان في أحد البيوت التي كان يحفظ فيها.

إن حرص خباب على الدعوة والإصلاح دفعه إلى أن يذهب هو إلى الناس، وكذلك كانت سياسة الرسول ﷺ في الدعوة، وهكذا يكون كل الدعاة الناجحين. مع الأخذ في الاعتبار.. أن الوصول إلى الناس ليس بالتحرك إليهم فقط، ولكن بالعيش معهم وفهم مشاكلهم، والشعور بآلامهم ومشاركتهم فيها.

٦- ربما يعشق الإنسان التضحية حتى تتحول إلى سلوك دائم لا ينفصل عنه (تصدق خباب الدائم بأمواله بعد ثرائه).

تصادفنا في حياتنا شخصيات، تعرضت لمسئوليات معينة في محيط أسرتها، دفعتها هذه المسئوليات إلى التضحية بمصالحها من أجل غيرها، وبعد فترة.. نلاحظ أن هذه الشخصيات قد اتخذت من منهج التضحية والإيثار أسلوبا في الحياة مع كل من حولها، فأصبحت لا تستطيع أن تعيش بغير أن تضحى من أجل غيرها، ويبدو أن «خبابا» قد اتخذ هذا المنهج، وإذا كان قد ضحى في بداية إسلامه بتحمل عذاب وحشي، فإنه أنهى حياته بالتضحية بماله والتصدق به للفقراء.

إن التضحية قد تؤلم البعض، ولكنها عندما تكون إرضاء لله تشعر صاحبها بالسعادة والرضا والرغبة في المزيد، وربما أراد الله أن ينهي حياة خباب بألم بدني كما بدأ إسلامه، حتى يظل أسطورة الفداء والتضحية في الإسلام.